قيمة العلم من خلال كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة

للإمام ابن القيِّم (ت٧٥١هـ)

إعداد

د/ عبدالسلام بن رابح السحيمي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

الجامعة الإسلامية- المملكة العربية السعودية

قيمة العلم من خلال كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة للإمام ابن القيِّم (ت٧٥١هـ)

عبدالسلام بن رابح السحيمي
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية الجامعة الإسلامية- المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : abdulsalam-rabeh@yahoo.com

الملخص :
تناولتْ هذه الدراسةُ قيمةَ العِلْم، من خلال رؤية الإمام ابن القيِّم بالتطبيق على ما تضمَّنه كتابُه "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة"؛ بحكم أنّ الكتاب المذكور حافلٌ بالحديث عن العلم، من جوانبه المختلفة، وفي موضوعات متعدِّدة. فتتبَّعتْ الدراسةُ الموضوعاتِ التي ورد فيها الحديثُ عن العلم بأي وجهٍ من الوجوه، ورصد الأفكار الناتجة عنها، مع تفقيرها وتقسيمها. واقتضت طبيعة الموضوع الاعتماد على المناهج العلمية (الوصفي والتحليلي والاستقرائي) في عرض الآراء والأفكار وتحليلها، ومن أبرز النتائج:

- شمولية مفهوم العلم في المنظور الإسلامي، فكل علم ممدوح ومطلوب ويدخل ضمن ما مُدِح وأُشيد به، ما دام أنه يلبِّي حاجات الناس ويعود عليهم بالنفع والفائدة.
- القيمة العلمية العالية لكتاب (مفتاح دار السعادة)، ليس في هذا الموضوع فحسب، وإنما في مختلف حقول المعرفة الداخلة في إطار العلوم الإسلامية واللغة العربية، وفيه الكثير من الفوائد والفرائد.
- أنَّ العلم من الأساسيات الضرورية التي يحتاج إليها الإنسان المسلم خاصة، فعليه يتوقَّف القيام بكثير من الواجبات.

وأوصى الباحث المهتمين بالتراث الإسلامي بتتبع قيمة العلم في كتب السلف، وتتبع كافة القيم المبثوثة في كتب أعلام التراث الإسلامي لأنها زاخرة بها.

الكلمات المفتاحية: قيمة، العلم، مفتاح دار السعادة، ابن القيِّم.

The value of knowledge through a book (The Key to the House of Happiness and the Publication of the State of Knowledge and Will) By Imam Ibn Al-Qayyim (d. 751 AH)

Abdul Salam bin Rabeh Al-Suhaimi
Department of Da'wah and Islamic Culture, Islamic University, Kingdom of Saudi Arabia
E-mail: abdulsalam-rabeh@yahoo.com

Abstract :
This study dealt with the value of knowledge, through the vision of Imam Ibn Al-Qayyim, by applying what was included in his book "The Key to the House of Happiness and the Manuscript of the Wilayat of Science and Will"; Because the aforementioned book is full of talk about science, from its various aspects, and on multiple topics. The study followed the topics in which science was mentioned in any way, and monitored the ideas resulting from them, with their impoverishment and division. The nature of the subject necessitated reliance on scientific methods (descriptive, analytical and inductive) in presenting and analyzing opinions and ideas. The most prominent results are:

- The comprehensiveness of the concept of science in the Islamic perspective, as every science is praised and desired and is included in what is praised and praised, as long as it meets the needs of people and brings them benefit and benefit.
- The high scientific value of the book (The Key to the House of Happiness), not only in this subject, but in various fields of knowledge within the framework of Islamic sciences and the Arabic language, and it has many benefits and uniqueness.
- Knowledge is one of the necessary basics that a Muslim person needs in particular, so he must depend on performing many duties.

The researcher recommended those interested in Islamic heritage to follow the value of science in the books of the predecessors, and to follow all the values transmitted in the books of Islamic heritage flags because they are replete with them.

Keywords: Value, Science, Key To The House Of Happiness, Ibn Al-Qayyim.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فإنَّ من المعلوم لدينا أنَّ الإسلام رفع من شأن العلم، وأعلى من مقام العالِم، وأرقى مرتبة المتعلِّم، كما تدل على ذلك الكثير من النصوص والشواهد في كتاب الله سبحانه تعالى، وسنة نبيِّه الكريم –صلى الله عليه وسلَّم–، والآثار المنقولة عن الصحابة والتابعين –رضوان الله عليهم–، وهذا ما دفع كثيرًا من العلماء إلى الاعتناء بهذا الباب اعتناءً كبيرًا، ولهذا تجد كتبًا كثيرةً عند العلماء القدماء، فضلًا عن المتأخِّرين، تتركَّز حول ذلك، وحَرِص أصحاب كتب الحديث على أن يكون في كتاب كلٌّ منهم كتابٌ يحمل عنوان: (كتاب العلم)، كما هو الحال بصاحِبَي الصحيحين: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، والإمام مسلم بن الحجَّاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ).

وقد كان الإمام ابن القيِّم (محمد بن أبي بكر الدمشقي، المتوفَّى سنة ٧٥١هـ) واحدًا من العلماء الذين كانت لهم اهتماماتهم الواضحة بتناول موضوع قيمة العلم ومكانته، ولم يكن ذلك مقتصرًا على كتابٍ ما بعينه من مؤلَّفاته، وإنما ورد في عددٍ منها، على تفاوتٍ بينها في الحجم وتبايُنٍ في الطبيعة أو الطريقة، وكان كتاب (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) من أهمِّ مؤلفات ابن قيِّم الجوزية في هذا الجانب؛ فقد حمل كلامًا كثيرًا وطرحًا مهمًّا حول هذه الفكرة أو القضية، حسب ما هو بيِّن لمن يطَّلع عليه، وحسب ما ستبيِّنه هذه الدراسة، ولا شكّ أن عنوان الكتاب يحمل دلالة واضحة على أهمية العلم فهو المفتاح الصحيح لسعادة الدارين والنجاة فيهما.

أهمِّيَّة الدِّراسة:

إذا كان شرف العلم من شرف موضوعه –كما يُقال–، فإنَّ هذه الدراسة تكتسب أهميتها من أهمية موضوعها، وهو قيمة العلم، ولا سيَّما أنها تناولته بالتطبيق على أنموذج أحد أبرز العلماء الأئمة الكبار الذين أثّروا بشكل واضح في التاريخ الإسلامي، وهو الإمام محمد بن أبي بكر ابن القيِّم (ت٧٥١هـ)، ومن خلال كتاب شهد تفصيلًا دقيقًا ومركَّزًا حول هذا الموضوع، بصورة قلَّما تكرَّرت في كتاب آخر، وهو كتاب "مفتاح دار السعادة".

أسباب اختيار موضوع الدِّراسة:

إلى جانب ما سبق ذكره في فقرة أهمية الدراسة، وكذا ما سيأتي في فقرة أهدافها؛ فإنَّ من أسباب اختيار هذا الموضوع لتناوله في هذه الدراسة ما يأتي:

- إحياء قيمة العلم وتجديد التذكير بها والدعوة إليها والحث عليها، ولا سيَّما أنَّها قيمة حضارية أصيلة، يتوقَّف عليها النهوض الحضاري، فلا حضارة تقوم دون علم.
- إدراك القيمة العلمية لكتاب (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)، باعتباره من أهم ما كَتَب الإمامُ ابنُ القيِّم –رحمه الله– في هذا المجال، وفي غيره من المجالات العلمية المتعلقة بالعلوم الإسلامية واللغة العربية.
- الردُّ على من يتَّهمون الإسلام بتجاهله العلم، وتصويره بأنه على علاقة تصادمية معه، على الرغم من أنه لا يكاد يوجد دينٌ اهتمَّ بالعلم كالدين الإسلامي الحنيف به، ولا كتابٌ نبَّه إليه وحثَّ عليه كالقرآن الكريم.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان قيمة العلم وتوكيدها، وإبراز القيمة العلمية العالية للكتاب الذي تدور حوله، وهو كتاب (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)، وحثَّ الباحثين والدارسين على دراسته ومدارسته وتدريسه، ولاسيَّما أنه يمثِّل موسوعةً علميةً غايةً في الأهمية والعمق والثراء، في أكثر من مجال علمي من المجالات التابعة للعلوم الإسلامية واللغة العربية، وفق التصنيف أو التوصيف الأكاديمي المتَّبع في الجامعات العربية والإسلامية.

منهجية الدِّراسة:

بما أنَّ لكل دراسة منهجها أو منهجيتها، وفقًا لطبيعتها وطبيعة موضوعها ومجاله، فإن منهجية هذه الدِّراسة تعتمد –في المقام الأول والرئيس– على المنهجين الوصفي والتحليلي، اللذين يتعامل معهما بعض الباحثين باعتبارهما منهجًا واحدًا؛ رُبَّما لأنَّ كلًّا منهما يستدعي الآخر ولا غنى له عنه. مع اقتضاء طبيعة الموضوع الاعتماد على المنهج الاستقرائي التتبُّعي.

الدِّراسات السابقة:

لم يتم الوقوف على دراسة سابقة حول هذا الموضوع الذي يتناول قيمة العلم من خلال الكتاب المذكور (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) لمؤلِّفه الإمام ابن القيِّم المتوفى منتصف القرن الثامن الهجري (٧٥١هـ)، بعيدًا عن الدراسات التي تناولت العلم من خلال القرآن الكريم أو من خلال السنة، أو من خلالهما معًا، أو من خلال مؤلَّفات لشخصيات أخرى.

تقسيمات الدِّراسة:

اشتملت الدِّراسة على ثلاثة مباحث، سبقتها مقدِّمة، وأعقبتها خاتمةٌ. وجاء كلُّ مبحثٍ من المباحث الثلاثة مشتملًا على عددٍ من المطالب، على النحو الآتي:

المبحث الأول: بيان أهمية العلم ومكانته.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: أهمِّيَّة العلم وخطورة الجهل.

المطلب الثاني: عدُّ العلم سببًا للرفعة ومعيارًا للتفاضل.

المطلب الثالث: إبراز فضائل العلم وفوائده.

المطلب الرابع: نعمة العلم بين المنح والمنع.

المبحث الثاني: عدُّ العلم طريقًا إلى التوحيد والإيمان.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مركزية التوحيد في دعوات الأنبياء والرُّسُل.

المطلب الثاني: إشهاد العلماء على وحدانية الله.

المطلب الثالث: اقتضاء زيادة العلم زيادة الإيمان والخشية.

المبحث الثالث: التفكُّر في خلق الإنسان والكون.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: علاقة التفكُّر بالعلم.

المطلب الثاني: التفكُّر في خلق الإنسان.

المطلب الثالث: التفكُّر في ملكوت السماوات والأرض.

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

المبحث الأول

بيان أهمِّيَّة العلم ومكانته

من المهم أن يكون الحديث عن فضائل العلم وفوائده، وفقًا لما ذكره الإمام ابن القيِّم –رحمه الله– في كتابه المشار إليه (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)، في مقدِّمة ما يمكن التطرُّق إليه وتناوله في هذه الدراسة، ولا سيَّما أن مثل هذا الأمر عمود رئيس يُبنَى عليه أي حديث عن العلم، بما يعني أن ما سيشتمل عليه المبحثان الثاني والثالث سيكون قائمًا أو متأسِّسًا على ما سيتم ذكره في هذا المبحث الأول، ومعزِّزًا له، ومستندًا إليه. مع أهمية التنبيه في هذا السياق إلى أن ما سيتم ذكره هنا، أي في كل فقرة من البحث، لن يخرج –غالبًا– عن الاختصار والإيجاز، من خلال الاكتفاء بما يمكِن أن يوصل الفكرة ويؤدِّي الغرض، مع صعوبة الاستقصاء والتفصيل حوله، نظرًا لجلالة العلم وأهميته في مختلف المجالات.

وقد تحدَّث الإمام ابن القيِّم عن مكانة العلم في مواضع عدة من الكتاب المشار إليه، منها –ولعله الأكثر– ما جاء تحت عنوان: (في العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه، وتوقُّف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه)[١].

فإنَّ للعلم مكانته العالية في الدين الإسلامي، يلحظها بكثيرٍ من الوضوح مَن يتتبَّع النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وهي كثيرة وفيرة، إلى جانب الآثار المروية عن الصحابة والتابعين –رضي الله عنهم جميعًا–، وسيتم ذكر هذه المعالم التي تؤكِّد ذلك من خلال ما أورده ابنُ القيم نفسُه، في الكتاب الذي حدَّدته الدراسة.

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣١).

المطلب الأول

أهميَّة العلم وخطورة الجهل

إنَّ العلم من الأمور الضروريَّة التي يحتاج إليها الإنسان في حياته، وعليه يتوقَّف تحقيق العديد من المقاصد، بل إنَّ كثيرًا من الواجبات الشرعيَّة لا يمكن للمرء المسلم أن يؤدِّيها بالشكل المطلوب إلا عند تمكنه من العلم، ومثل هذه الأمور تدخل ضمن ما لا يُعذَر الجهل به، على اعتبار أنَّ "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، كما تقرِّر ذلك قاعدةٌ أصوليَّةٌ شهيرةٌ.

وقد ذكر ابنُ القيِّم، في أكثر من موضع، مقولةً للإمام أحمد بن حنبل –رحمهما الله– تفيد أنَّ "الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرةً أو مرَّتين، والعلم يُحتاج إليه بعدد الأنفاس"(١)، وذكر ابن القيِّم وجهًا مستقلًا لبيان هذا الأمر، ضمن عرضه معالم فضل العلم ومكانته، مؤكِّدًا أنَّ "حاجة العباد إلى العلم ضرورية، فوق حاجة الجسم إلى الغذاء؛ لأنَّ الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرةً أو مرَّتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس؛ لأنَّ كلَّ نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبًا للإيمان وحكمه"(٢).

ومن أقوى ما يمكن الحصول عليه لدى إمامنا القيِّم في كتابه القيِّم، قوله "إن العلم حاكم على ما سواه، ولا يحكم عليه شيء، وهذا يدل على

---

(١) ذكر ابنُ القيم هذه المقولة في أكثر من موضع، في كتابه (مفتاح دار السعادة)، منها: (ص١٦٤) و(ص٢٢٦)، وأحال في الموضع الأول إلى ثلاثة مصادر؛ هي –وفق ما ورد لديه–: مسائل حرب: (٣٣٤) ؛ طبقات الحنابلة: (١/ ٣٩٠) ؛ الآداب الشرعية: (٢/ ٤٤).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص٢٢٥).

مدى المكانة العالية التي يحتلها العلم؛ "فكل شيء اختُلِف في وجوده وعدمه، وصحته وفساده، ومنفعته ومضرَّته، ورجحانه ونقصانه، وكماله ونقصه، ومدحه وذمِّه، ومرتبته في الخير، وجودته ورداءته، وقربه وبُعده، وإفضائه إلى مطلوب كذا وعدم إفضائه، وحصول المقصود به وعدم حصوله، إلى سائر جهات المعلومات= فإن العلمَ حاكمٌ على ذلك كله، فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الاتِّباع"[1].

وإذا كان الإنسان مستخلَفًا في الأرض، ومحمّلًا مهمة إعمار الأرض، كما قال الله تعالى على لسان سيِّدنا صالح –عليه السلام– وهو يخاطب قومه (ثمود): ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]؛ فإنَّ العلم من مقتضيات القيام بمهام الخلافة أو الاستخلاف، وعليه يتوقَّف.

وقد ركَّز الإمام ابن القيِّم على استنباط الفوائد من القصص القرآني لإثبات مكانة العلم العالية ومنزلته السامية؛ ومن ذلك ما ذكره حول قصة إخبار الله تعالى ملائكته بأنه سيختار خليفةً له، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠–٣٣]، كما ورد هذا في قصة آدم

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٢٢٠).

وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس ولعنه وإخراجه من السماء.

فقد اعترض الملائكة على جعل خليفة لله في الأرض: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾، [البقرة: ٣٠]، فردَّ عليهم سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: ٣١].

وبيَّن الإمام ابنُ القيِّم فضل العلم وأهميته وضرورته في هذه القصة من وجوهٍ أربعة(١):

الأول: أنه سبحانه ردَّ على الملائكة لمَّا سألوه: كيف يجعل في الأرض من هو أطوع له منه؟ فقال ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ، بحيث أجاب بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه من ظواهرها، وهو الحكيم الخبير العليم.

الثاني: أنه سبحانه وتعالى أراد إظهار تميز آدم وتفضيله، ففضَّله عليهم بالعلم؛ من خلال تعليمه إيَّاه الأسماء كلها، فقال: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾

الثالث: أنه سبحانه وتعالى لمَّا عرَّفهم فضل آدم بالعلم، وعَجَّزَهم عن معرفة ما علَّمه، فقال لهم: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ ، فعرَّفهم نفسَه بالعلم، وأنه أحاط بكل شيء علمًا.

الرابع: أنه سبحانه أراد أن يظهر آدم بأفضل ما يمكن أن يُوصَف

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٤١- ١٤٣).

به، فدلَّ ذلك على أن العلم أفضل ما يمكن أن يتمتَّع به إنسان، وأن فضل الإنسان وشرفه بالعلم.

وممَّا يدخل في باب بيان أهمية العلم وتوكيد ضرورته، ما ورد في حديث عن أبي موسى –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلَّم– شَبَّه العلم والهدى الذي جاء به بالغيث؛ إذ قال: "إن مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمَثَل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي ًارسلت به"[(١)].

ووجه الشبه هنا –كما يبدو واضحًا– يرجع إلى ما يحصل من كلٍّ منهما من المنافع والفوائد والأغذية وسائر مصالح الناس، فإنها بالعلم والمطر.

كما تم تشبيه القلوب بالأراضي التي تقع المطر عليها؛ لأنها المحل الذي يمسك الماء، فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو وتطهر بركته وثمرته.

وقد تم تقسيم الناس من حيث مدى قدرتهم على التمكُّن من الحفظ والاستيعاب، استذكارًا واستنباطًا، إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: أهل الحفظ والفهم، الذين يجمعون بين حفظه واستذكاره من

(١) صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: فضل من عَلِم وعلَّم، رقم (٧٩): (٤٢/١) ؛ صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: بيان ما بُعِثَ به النبي –صلى الله عليه وسلَّم– من الهدى والعلم، رقم (٦٠٩٣): (٧/ ٦٣).

جهمه وفهمه وتعقُّله من جهة أخرى، فالحفظ يقابل قبول الأرض للماء، والفهم يقابل النبت والزرع. ولعلَّ علماء الحديث من أنسب من يمكن التمثيل بهم هنا؛ كونهم جمعوا بين الأمرين، ولهذا نجد فقههم بارزًا من خلال حسن تبويبهم كتبهم، وعلى رأي هؤلاء الإمام البخاري والإمام مسلم.

ثانيها: أهل الحفظ والاستذكار، الذين لم يجمعوا إلى قوة حفظهم ودقَّة ضبطهم قوَّةً ودقةً في الفهم والفقه والاستنباط، فكان حالهم كحال الأرض التي تقبل الماء، فيفيد منه الناس في الشرب والسقي والزراعة، وإن لم ينبت بالشكل الذي يكون في القسم الأول. وكلا القسمين مفيد، مع أفضلية الأول.

ثالثها: أهل الخسران في الحالتين، فلا هم أهل حفظ ولا أهل فهم، فكانوا بمثابة الأرض التي لا تنبت ولا تمسك الماء.(١)

وفي الحديث النبوي المذكور في هذه الفقرة دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم، لا يقل شأنًا عن حاجتهم إلى المطر.

وقد قال تعالى﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾، [الرعد: ١٧]، وفي الآية تشبيه للعلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء؛ كون كلٍّ منهما يعود على الناس بالنفع والفائدة والمصلحة.

وعلى عكس ما ورد من مدح العلم وتوكيد أهميته والثناء على أهله والإشادة بهم، فقد ورد ذَمَّ الجهل وأهله، فكان من المناسب أن يُتطرَّق إليه، من باب أن الأشياء تتمايز بضدِّها، وهذا ما تنبَّه له ونبَّه إليه الإمام ابن القيِّم، فقد أشار –رحمه الله– إلى ما ورد في ذم الجهل والجهالة والجاهلين

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٦٣-١٦٤).

في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها:[١]

- قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].
- وقوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧].[٢]
- وقوله في جعل الجاهلين أكثر ضلالًا من الأنعام: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].
- وإخباره –عزَّ وجلَّ– بأن الجُهَّال شر الدواب عند الله، على اختلاف أصنافها وتعدد أنواعها، بقوله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].
- قول الله لنبيِّه موسى –عليه السلام– محذِّرًا من جهة، ومعيذًا إيَّاه من أخرى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].
- وعظ الله لنبيِّه نوح –عليه السلام– أن يكون من الجاهلين، حينما أبدى حزنه وألمه على ولده، فأخبره بأنه عمل غير صالح، ومن ثم فليس من أهله؛ ثم قال: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

---

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٤٣– ١٤٤).

(٢) وردت جملة ((**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**)) في ثمانية مواضع أخرى من القرآن الكريم: الأعراف: ١٣١ ؛ الأنفال: ٣٤ ؛ يونس: ٥٥ ؛ القصص: ١٣، ١٧ ؛ الزمر: ٤٩ ؛ الدخان: ٣٩ ؛ الطور: ٤٧ .

- استعاذة سيِّدنا موسى –عليه السلام– بالله من أن يكون من الجاهلين، كما حكى الله عنه قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧].
- عقوبة الله على أعدائه بأن يمنع عنهم علم كتابه وفهمه وفقهه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥– ٤٦].
- أمره –سبحانه– لنبيِّه سيِّدنا محمد –عليه الصلاة والسلام– بالإعراض عن الجاهلين: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].
- ثناء الله على مَن يعرضون مِن عباده عن الجاهلين الذين يصدر عنهم اللغو؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥].
- جعل الله من أولى صفات عباد الرحمن المذكورين في أواخر سورة الفرقان أنهم يعرضون عن الجاهلين؛ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

كما يدخل في باب ذم الجهل والتحذير منه والإشارة إلى خطورته وضرورته، أن الله سبحانه وتعالى وصف، ويمكن أن نقول وصم، أهل النار بالجهل، كما قال تعالى على لسانهم أو ألسنتهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾، [الملك: ١٠– ١١]، وأن يحكي عنهم خلُوَّهم من السمع والبصر؛ إذ لو كان لهم شيءٌ من ذلك لحال بينهم وبين ما وقعوا فيه.

وذكر سبحانه أن في النار من لا يُعمِل عقله وسمعه وبصره، ومِنْ ثَمَّ

حَرَم نفسه من العلم، من أيٍّ من هذه الجهات الثلاث المذكورة؛ إذ قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فنجد أن الله -سبحانه وتعالى- قد جعل من أسباب الشقاء، عدم الحصول على العلم، أو حتى نيل العلم غير الكافي، أو الحصول على علم غير سليم يضر ولا ينفع، ولهذا شبَّههم بالأنعام، وجعلهم أضل منها، كما شبَّههم بالحمار ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة: ٦]، وجعلهم شرَّ الدواب، وجعلهم أمواتًا غيرَ أحياء، وأخبر أنهم في ظلمات الجهل والظلام، وأن على قلوبهم أكنَّة وعلى أبصارهم غشاوة[1].

فهذه النصوص، بمجموعها ومفردها، تدل على أن الجهل شيء قبيح، وفيها ما يبعث على تبغيضه، في مقابل تعظيم العلم، إن لم يكن صراحةً أو بمفهوم الموافقة، فمن باب مفهوم المخالفة.

(١) يُنظَر: مفتاح دار السعادة: (ص١٦٠-١٦١).

المطلب الثاني

عدُّ العلم سببًا للرفعة ومعيارًا للتفاضل

من مكانة العلم وفضائله وفوائده، أنه سببٌ للرفعة بمكانة صاحبه والعلو بمنزلته، وأنه –أي العلم– عاملٌ من عوامل التفاضل بين الناس، وفقًا وما سيتم توضيحه والحديث عنه والتعليق عليه، مع الاستشهاد على كل نقطة بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وبعض الآثار المنقولة عن الصحابة والتابعين –رضوان الله عليهم–.

فقد جعل اللهُ العلمَ معيارًا للتفاضل بين الناس، جاعلًا للعالِم والمعلِّم والمتعلِّم فضلًا يتميَّزون به عن غيرهم ممن سواهم، فقد نفى –سبحانه وتعالى– التسوية بين أهل العلم وغيرهم، كما نفى –عزَّ وجلَّ– التسوية بين أهل الجنة وأهل النار؛ فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]، وهذا يدل على غاية فضلهم.(١)

وبهذا يكون العلم إلى جانب التقوي في معيارية التفاضل بين الناس، فهم متساوون في الأصل، لا فضل لأحدٍ منهم على غيره، لا لأبيض على أسود، ولا لعربي على عجمي، ولا لأحدٍ –أيًّا كان– ميزة على غيره، والمعيار الأساس هو التقوى الذي نصَّت عليه آيةٌ قرآنيةٌ أخرى، قال الله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾، [الحجرات: ١٣]، وهي آية من

(١) يُنظَر: مفتاح دار السعادة: (ص١٣٣).

الآيات التي يجب تدبُّرها جيدًا عند النظر في العلاقات العامة والخاصة داخل المجتمع المسلم، بدءًا بتوكيد أن الناس سواسية في أصل الخلقة، فجميعهم من ذكر وأنثى (آدم وحواء)، مرورًا ببيان أن الحكمة من جعل الناس شعوبًا وقبائلَ هي في تحقيق التعارف الذي يحمل معنى التآلف، وانتهاءً بتقرير أن التقوى هي معيار التفاضل بينهم.

ولا يعني القول بأن العلم معيار للتفاضل بين الناس، بأنه يمكن أن يكون معيارًا للتفاضل في الدنيا، في مقابل أن التقوى معيارٌ للتفاضل في الآخرة، بحيث يكون كلاهما معيارًا منفصلًا عن الآخر، فيمكن أن يكون العلم داخلًا في التقوى، بل إن هذا ما يُفتَرَض أن يكون، من باب أن العلم عامل يبعث على التقوى في قلب العبد، فيدفعه ذلك -كما سيأتي بيانه بالأدلة- على أن يخشى الله ويتقيه ويراقبه، فـ"من كان بالله أعرف، كان منه أخوف".

وجعل -سبحانه وتعالى- العلم أداة الإبصار، ومن ثم فإن المحروم منه (الجاهل) حاله كحال الأعمى، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، وفي هذا ما يزيد التوكيد بأن العلم معيار تفاضل.[1]

كما أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل العلم من عوامل رفعة الدرجات؛ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١].

ولم يفت الإمام ابن القيِّم أن يشير في هذا الموضع إلى المواضع

(١) يُنظَر: مفتاح دار السعادة: (ص١٣٤).

الأخرى التي فيها رفعة درجات، حرصًا منه على مزيد فائدة كما هو منهجه في الكتابة والتأليف، فذكر أنَّ هناك مواضع أخرى بجانب هذا الموضع:(١)

فالموضع الثاني: عند ذكر بعض من أهم صفات المؤمنين، أو من وصفهم القرآن بكونهم "المؤمنين حقًّا"، ومن بينها أن قلوبهم توجل عند ذكر الله، ويزداد إيمانهم عند تلاوة آياته، ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

والموضع الثالث: عند بيان أن من يأتي ربه مؤمنًا وذا عمل صالح، فإنه ينال رفعةً في الدرجات وعلوًّا عند ربه، ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾، [طه: ٧٥].

والموضع الرابع: عند بيان الدرجات التي ينالها المجاهدون، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٥-٩٦].(٢)

---

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٦-١٣٧).

(٢) كان يمكن أن يكون هناك موضع خامس حول رفعة الدرجات، في ضوء القرآن الكريم، بجانب هذه الأربعة التي تمَّ عرضها، ولكن يبدو -والله أعلم- أن الإمام ابن القيِّم لم يذكرها؛ لكونها خاصَّةً بخليل الله إبراهيم -عليه السلام-، حينما ناظر قومه، فرفعه الله درجاتٍ في علم الحُجَّة الذي غَلَبَهم به، قال تعالى: **((وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ))** [الأنعام: ٨٣]، مع =

وإلى جانب ما سبق، فإن بالعلم يكتسب المرءُ الحُجَّة، وقد امتنَّ الله تعالى على نبيِّه إبراهيم –عليه السلام– بأن آتاه الحجة التي تغلَّب بها على من ناظروه، من أبيه وقومه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد ورد على لسان البعض أنَّ المراد برفع الدرجات في هذه الآية هو الرفع في جانب علم الحجة، وفقًا وما يشير إليه السياق(١).

ويبدو من المناسب أن تتمَّ الإشارة –في هذا السياق– إلى أنّ الله –سبحانه وتعالى– سمَّى الحُجَّة العلمية سلطانًا.

وحول هذا، قال ابن عبَّاس –رضي الله عنهما–: "كل سلطان في القرآن فهو حُجَّة"(٢).

ومن هذا قول الله تعالى:

- ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].
- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ [النَّجم: ٢٣].

=

أنّ الإمام ذكر هذا الشاهد (ص١٣٩) ضمن شواهد فضل العلم وقيمته عمومًا.

(١) نقل ابن القيِّم هذا القول عن زيد بن أسلم، رضي الله عنه. يُنظَر: مفتاح دار السعادة: (ص١٣٩).

(٢) علَّقه البخاري في صحيحه: (١٧٤١/٤) ؛ ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٨/٢) رقم (١٦٥٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٣٠/٣) رقم (٥٧٧٨).

- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ ، [الصَّافات: ١٥٦- ١٥٧].
- ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾، [الحاقَّة: ٢٨-٢٩].

فكل "سلطان" في هذه الآيات، قُصِد به الحُجَّة والبرهان، وهما لا يكونان إلا بالعلم، بل المقصود بالعلم هنا (علم الحُجَّة)، مع ورود اختلاف حول المراد بالسلطان في آية سورة الحاقَّة؛ فذهب البعض إلى أن المراد منها القدرة والمُلك، ومِنْ ثَمَّ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي ذهب عني مالي وملكي، فيما ذهب البعض الآخر، ولعلهم الأكثر، إلى أن السلطان هنا يحمل نفس المعنى الذي حمله اللفظ نفسه في الآيات الأخرى، والمعنى انقطاع الحُجَّة وبطلانها.

وقال ابن القيِّم: "سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا يُنقَاد الناس للحُجَّة ما لا ينقادون لليد؛ فإن الحُجَّة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فينقاد لها البدن، فالحُجَّة تأسر القلب وتقوده، وتُذِل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت سلطانها..."[(١)].

كما أنَّ الله تعالى ميَّز نبيَّه يوسف –عليه السلام– وكرَّمه على أهل زمانه، بأن جعله يعلم بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدَّمه ومكَّنه وسلَّم إليه خزائن الأرض، فكان حسن علمه شفيعًا له عند المَلِك ليطلق سراحه من السجن، بينما لم يشفع له ذلك حسن مظهره، إن لم يكن هذا الحسن سبب سجنه، أو أحد أسبابه، وهكذا يرفع الله أهل العلم درجات[(٢)].

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٦٠).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٤٣)، وينظر: التفسير الوسيط (٣٤٥/٥).

وبالعلم ميَّز الله الإنسان على غيره من المخلوقات الحيوانية، ولهذا فقد ذُمّ من لا يعقلون ولا يسمعون ولا يفهمون، ونُصّ على كونهم شرّ الدواب، بقوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣]، وبقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾، [البقرة: ١٧١].

ويذهب ابن القيِّم إلى أن المراد بالسمع ثلاثة معانٍ، مذكورة كلها في القرآن:[1]

الأول: إدراك الصوت، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١].

والثاني: فهم المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣].

والثالث: القبول والإجابة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [التوبة: ٤٧].

ومن أهم المعالم التي تبيِّن مكانة العلم وتبرز قيمته وتؤكد أهميته، أن العلماء وَرَثة الأنبياء، وفي هذه الميزة ما يكفي لبيان ذلك، ولهذا فإنَّ من الطبيعي أن تكون حاضرةً في أذهان الكثيرين عند الحديث عن فضائل العلم وفوائده، وكيف لا يكون الأمر كذلك والعالِم وريث للأنبياء الذين هم خير

(١) يُنظَر: مفتاح دار السعادة: (ص٢١٨-٢١٩).

خلق الله أجمعين، عليهم صلوات الله وسلامه.

فإذا كنا نعلم أن الأنبياء والرسل –عليهم السلام– أفضل البشر، وقد اصطفاهم الله من خيرة خلقه، بل إن كل واحد منهم خيار من خيار، وقد وردوا في القرآن مقدَّمين على مراتب أخرى من أصناف الذين أنعم الله عليهم، فقال سبحانه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾، [النِّساء: ٦٩– ٧٠]؛ فإنَّ من شأن هذا البيان لمكانة الأنبياء –عليهم السلام– أن يعطينا معرفة العظمة التي يحملها جعل أهل العلم ورثة الأنبياء، "فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملًا وهدايةً وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء"(١).

ورد عن أبي الدرداء –رضي الله عنه–، قوله: "سمعتُ رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم– يقول: "من سلك طريقًا يبتغي به علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم؛ فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافرٍ"(٢).

---

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٢١٦).

(٢) سنن أبي داود، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤٣): (٣٥٤/٣) ؛ سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢): (٥/ ٤٨) ؛ سنن ابن ماجه، كتاب: الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣): (٨١/١).

وتوقَّف ابن القيِّم عند عد العلماء ورثةً للأنبياء، مُعِدًّا هذا من أعظم مناقب أهل العلم، لاعتبارات كثيرة؛ منها: أن الأنبياء خير خلق الله، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ ورثتهم سيكونون خير الخلق بعدهم، إلى جانب ما يفيد الأمر من العلاقة والقرابة اللتين تربط العلماء بالأنبياء، وفيه من الإرشاد للأمة إلى محبتهم وطاعتهم. لكنَّ الأمر ليس تشريفًا فحسب، فهو يحمله ويحمل إلى جانبه التكليف، بحيث يوجب على العلماء أن يكونوا على خُطى الأنبياء.(١)

وذكر ابن القيِّم أن "وضع الملائكة أجنحتها له تواضعًا له وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له؛ لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته، ففيه شبه من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب؛ فإن الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم، وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى. ومن نفعهم لبني آدم ونصحهم، أنهم يستغفرون لمسيئهم ويثنون على مؤمنيهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين، ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه، بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريده العبد، ولا يخطر بباله "(٢).

وتوقَّف عند القول بأن من أخذ بالعلم، يكون قد أخذ بحظ وافر، قائلًا: إنّ "أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له، وليس هذا إلا حظه من العلم والدين..."(٣).

وحول هذه النقطة الأخيرة، نُقِل عن بعض التابعين مقولةً، مفادها: "وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده، ووجدنا الشياطين أغش الخلق

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٧٩- ١٨٠).
(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٧١).
(٣) مفتاح دار السعادة: (ص١٨٣).

للعباد"[١].

وقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- فضله ومِنَّته على أنبيائه ورسله -عليهم السلام-، وعلى أوليائه وعباده الصالحين، وذلك بما آتاهم من العلم.

فقد قال الله سبحانه وتعالى عن سيِّدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل -صلى الله عليه وسلَّم-: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣].

وقال عن سيِّدنا يوسف -عليه السلام-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال عن سيِّدنا موسى -عليه السلام-:﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤].

وقال في سيِّدنا عيسى -عليه السلام-: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال عنه -أيضًا-: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

وقال عن سيِّدنا داوود -عليه السلام-: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ

(١) تُنسب العبارة للتابعي مطرف بن عبد الله. ينظر: تفسير الطبري (٢٨٧/٢٠)، النكت والعيون للماوردي (١٩٣/٥).

وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة ص: آية ٢٠].

وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه:﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥]، فدلَّت الآية – بوضوح– على أن تعليمه من النِّعَم التي امتنَّ الله بها عليه.

وقال عن سيِّدينا داود وسليمان –عليهما السلام–: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨–٧٩].

وامتنَّ الله على عباده المؤمنين، من أمة محمد –صلى الله عليه وسلَّم– بأن رزقهم العلم ومنحهم الفهم وكرَّمهم بهما وفضَّلهم على غيره؛ فقال –سبحانه–: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

كما قال –عزَّ وجلَّ– في امتنانه على عباده المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٢–٤].

أن الله تعالى عدَّد نِعَمَه وفضله على رسوله، وجعل من أجلِّها أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فقال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النِّساء: ١١٣].

أنه سبحانه ذكَّر عباده المؤمنين بهذه النعمة التي هي نعمة العلم،

آمرًا إيَّاهم بشكره عليها بذكرهم إيَّاه سبحانه، فقال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١- ١٥٢].

المطلب الثالث

إبراز فضائل العلم وفوائده

بما أنَّ ما سبق ذكره جزءٌ لا يتجزأ من الحديث عن قيمة العلم ومكانته، فإنَّ من الأهمية التنبيه إلى أنَّ هذا المطلب سيحاول إبراز فضائل العلم وفوائده، من مجالات عدة وزوايا متنوِّعة أو متفرِّقة، ممَّا استعرضه الإمام ابن القيِّم في كتابه (مفتاح دار السعادة)، مع الحرص على تحاشي التكرار، ولا سيَّما مع التداخل الوارد بين فقرات البحث، الناتج عن الوحدة الموضوعية.

فمن فضائل العلم وفوائده العامة ما يأتي:

- أنَّ الله سبحانه أمر بسؤال أهل العلم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النَّحْل: ٤٣-٤٤].(١)
- أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد على صحة ما أنزل الله على رسوله: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾ [الأنعام: ١١٤].(٢)

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٤).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٤).

- أنه سبحانه سلَّى نبيَّه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩]، وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله قد عرفوه وآمنوا به وصدَّقوا، فسواء آمن به غيرهم أم لم يؤمنوا.(١)
- أن الله تعالى كرَّم أهل العلم وشرَّفهم بجعله القرآن الكريم آياتٍ بيِّناتٍ في صدورهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩].(٢)

وفي هذا الأمر تعظيم للعلم وأهله، أيًّا كان المعنى المقصود منه، سواء أكان المراد أن القرآن الكريم ثابت مستقر في صدور الذين أُوتُوا العلم وهو في نفسه آيات بيِّنات أم أنه آيات بيِّنات في صدورهم.

- أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيَّه -صلى الله عليه وسلَّم- أن يسأله المزيد من العلم، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ

(١) مفتاح دار السعادة: (ص ١٣٤- ١٣٥).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٥).

﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].(١)

وورد في حديث عن أبي سعيد، النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "لن يشبعَ المؤمنُ من خيرٍ يسمعه حتى يكون منتهاه الجنَّة"(٢).

ففي هذا الحديث دلالة على أن النَّهمةَ في طلب العلم وعدم الشبع منه من علامات كمال الإيمان ولوازمه، ومما ينبغي للمسلم أن يتصف به، فجُعِل استمرار الطلب للعلم بنهم وشغف دأب المؤمن حتى دخوله الجنة.(٣)

وهذا يأتي متسقًا مع ما نُقِل عن العلماء والحكماء، بخصوص طلب العلم من المحبرة إلى المقبرة، أو من المهد إلى اللحد(٤).

- إخباره عزَّ وجلَّ أن أهل العلم هم الذين ينتفعون بالأمثال التي يضربها لعباده، تقريبًا منه لهم في الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر، قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].(٥)

ونُقِل أن بعض السلف بلغ من اهتمامهم بتعقُّل الأمثال القرآنية الدرجة التي تدفع الواحد منهم إذا مرَّ بمَثَلٍ ولم يستوعبه إلى أن يبكي؛ أسفًا على

---

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٦)، وقال: "هذا حديث حسن غريب". والبيهقي في شُعَب الإيمان (٤٣٠/٣). وصححه ابن حبان؛ والحاكم (١٢٩/٤).

(٣) مفتاح دار السعادة: (ص٢٠٣). بتصرُّف يسير.

(٤) نُقِل عن الإمام أحمد بن حنبل أن الرجل يطلب العلم إلى الموت، وأنه سيظل يطلب العلم إلى أن يدخل القبر. يُنظَر مثلًا: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص (٣٧)؛ الآداب الشرعية (٥٣/٢-٥٤)، ونُقِل مثل هذا عن الإمام عبد الله بن المبارك. ينظر: جامع بيان العلم وفضله، (١/ ٤٠٦).

(٥) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٨). وورد أن للإمام ابن القيِّم كتابًا عني بدراسة الأمثال القرآنية، إلى درجة إفراد كتاب خاص بها، وقوله إنها بضعة وأربعون مَثَلًا.

كونه من غير العالمين[١].

- أن الله سبحانه وتعالى أمر أهلَ العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]. وحسب ابن القيِّم، فقد "فُسِّر فضل الله بالإيمان، ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل"[٢].
- أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرًا كثيرًا، بالاستدلال على ذلك بما ورد في قوله تعالى عن الحكمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد نُقِل عن البعض أن الحكمة يُراد بها إصابة الحق والعمل به، وهو العلم النافع والعمل الصالح.[٣]
- تصوير الله للعلم بأنه نور وللجهل بأنه ظلام؛ إذ قال سبحانه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وحسب تعبير ابن القيم؛ فإنَّ "العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور والحياة؛ فإن النور يكشف عن حقائق

(١) يُنظَر مثلًا: تفسير ابن أبي حاتم (٣٠٦٤/٩)، تفسير ابن كثير، (٢٨٠/٦)، حلية الأولياء لأبي نعيم (٩٥/٥-٩٦).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٩- ١٤٠).

(٣) ذكر ابن القيِّم أن هذا قول قتادة والجمهور. مفتاح دار السعادة: ص (١٤٠). وينظر: المبسوط للسرخسي (٦٠/١٦)، ومفردات القرآن للراغب ص (٢٤٩)، وفتح الباري لابن حجر، (٥٢٢/١٠).

الأشياء، ويبيِّن مراتبها، والحياة هي المصححة لصفات الكمال، الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال"[١].

- من دقيق نظر ابن القيِّم في استدلاله على قيمة العلم ومكانته في الإسلام، استدلاله بجعل صيد الكلب المعلَّم حلالًا، في مقابل عدِّ صيد الكلب الجاهل ميتةً يحرُم أكلها، فدلَّ ذلك على شرف العلم وفضله؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

وقد علَّق الإمام ابن القيِّم على هذه النقطة، منبِّهًا إلى ما تشتمل عليه مما يؤكِّد قيمة العلم ومكانته، من جهة أنه "لولا مزيَّة العلم والتعليم وشرفهما، كان صيد الكلب المعلَّم والجاهل سواء"[٢].

- أن الله أخبرنا عن صفيِّه وكليمه (موسى –عليه السلام–) الذي كتب له التوراة بيده وكلَّمه منه إليه، أنه رحل إلى رجل عالم ليتعلم منه، وحرصًا على الاستزادة من العلم، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: ٦٠]، بادئًا تعامله معه بالاستئذان ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

قال ابن القيِّم: "وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم؛ فإنَّ نبيَّ الله سافر ورَحَل حتى لقي النصب من سفره في تعلُّم ثلاث مسائل من رجل عالِم، ولمَّا

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٤٥).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٥٠).

سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه".[١]

- أنَّ الله ندب المؤمنين إلى التعلم والتعليم؛ فالتعلُّم يكون بواسطة التفقه في الدين، في حين أن التعليم يكون على شكل إنذار قومهم، عند الرجوع إليهم. قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة: ١٢٢].

وهذا دليل على فضل العلم وفائدته، أيًّا كان المراد من الآية، على اختلاف أو تعدُّد في فهمها وتفسيرها، ففي الآية "ترغيبٌ في التفقُّه في الدين وتعلُّمه وتعليمه، وأن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه"[٢].

- أنَّ في العلم نجاةً من الخسران الذي ورد في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر]؛ فهذه السورة تؤكِّد أن النجاة من الخسران ناتج عن أربعة عوامل؛ هي: (الإيمان، العمل الصَّالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر)، وكلها تحتاج إلى العلم، بل إنها متوقفة عليه ومتأثِّرة به، وجودًا وعدمًا، زيادةً ونقصانًا. وحسب ابن القيِّم، "فهذه السُّورَة –على اختصارها– هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا من كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير"[٣].

- أنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل أول ما أنزل من القرآن الكريم على صدر

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٥٠).
(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٥٢).
(٣) مفتاح دار السعادة: (ص١٥٣– ١٥٤).

سيِّدنا محمد –صلى الله عليه وسلَّم– صدر سورة حملت اسم (القلم) الذي ذُكِر فيها، مع شمولها الامتنان على الإنسان بتعليمه ما لم يكن يعلم، وليس هذا إلا تشريفًا للعلم ورفعًا لمقامه؛ قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [القلم: ١–٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم (اقْرَأ).

وقد نبَّه الإمام ابن القيِّم –رحمه الله– إلى أن هذه الآيات ذكرت الخلق عمومًا ((الذي خَلَق)) وخصوصًا (خَلَقَ الإنسانَ)، مثلما ذكرت العلم عمومًا وخصوصًا –أيضًا–، فالتعميم (التعليم بالقلم)، والخصوص (تعليم الإنسان ما لم يعلم)، ففي التعليم العام ما يدخل تحته تعليم الملائكة.

وفي هذه الآيات تكرار للأمر بالقراءة، فالأولى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، والثانية: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، وفيها ما يُفهم من لغة الامتنان، فالخلق والعلم من كرمه سبحانه، وتم استعمال "الأكرم" التي على وزن الأفعل، للدلالة على كثرة الخير.[١]

– ورد في الحديث عن معاوية –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم– قال: ((مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين))[٢]، ويُفهَم من هذا أن من أراد الله له الخير فهو في طريق العلم وميدانه، ومن لم يكن له حظٌّ من هذا الأمر (الفقه في الدين) فإن الله لم يرد به خيرًا.

---

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٥٦– ١٥٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيرًا يفقِّه في الدين، رقم (٧١): (٣٩/١) ؛ صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة، رقم (٢٤٣٦): (٣/ ٩٤).

ونلحظ أن استعمال الفقه في هذا الحديث، يشير إلى أن من المهم أن تكون الأولوية في طلب العلم وتحصيل المعرفة، لجانب الفهم والاستيعاب على جانب الحفظ والاستذكار، مع إقرارنا بأهمية هذا الجانب الأخير وضرورته.

- ورد في الحديث أن النبيَّ –صلى الله عليه وسلَّم– لعلي بن أبي طالب: "لأن يهدي اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم"(١).

وهذا يدل على فضل العلم والتعليم، وشرف منزلة أهله، بحيث إذا اهتدى رجلٌ واحدٌ بالعالِم، كان ذلك خيرًا له من حُمْرِ النَّعَم، وهي خيارها وأشرفها عند أهلها، ولن يكون هذا إلا بالعلم والتعلُّم.

- ورد في حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبيِّ –صلى الله عليه وسلَّم– قال: "من دعا إلى هدى، كان له مِن الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا"(٢).
- ورد في حديث ابن مسعود –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "لا حَسَد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها"(٣). وفي

(١) صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب علي بن أبي طالب، رقم (٣٤٩٨): (١٣٥٧/٣) ؛ صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٦٣٧٦): (٧/ ١٢١).

(٢) صحيح مسلم: كتاب: العلم، باب: من سنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أو سيِّئَةً، رقم (٦٩٨٠): (٨/ ٦٢).

(٣) صحيح البخاري: كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة، رقم (٧٣): (١/ ٣٩) ؛ صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه، رقم (١٩٣٣): (٢/ ٢٠١).

رواية: "لا حَسَد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"(١).

فقد حصر رسولُ الله الحسد وقصره على حالتين اثنتين، لا ثالثة لهما؛ فإما أن يكون في نفع الناس بالعلم وإما في نفعهم بالمال، وكلا الأمرين إحسان وإكرام.

مع الانتباه إلى أن المراد بالحسد هنا ليس المعنى المتعارف عليه حوله، من حيث إنه عبارة عن تمني زوال النعمة عن الغير، ولكنه يحمل معنى الغبطة، بما يحمل معنى تمني الحصول على الشيء الذي أكرم الله به الغير، دون الوصول إلى مرحلة تمني زوال النعمة عنه.

- ورد في حديث عن أبي أمامة الباهلي –رضي الله عنه–، جاء فيه أنه ذُكِر للنبي –صلى الله عليه وسلم– شخص عابد وشخص عالم، فكان أن أبدى فضل العالم على غيره، بقوله: "فضل العالِم على غيره كفضلي على أدناكم"، ثم قال رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم–: "إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جُحرها، وحتى الحوت في بَحْره، ليصلُّون على معلِّم الناس الخير"(٢).

قال ابن عباس –رضي الله عنه–: "علماء هذه الأمة رجلان، فرجل أعطاه الله علمًا، فبذلَه للناس ولم يأخذ عليه صَفَدًا، ولم يَشْتَرِ به ثمنًا، أولئك

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه، رقم (١٩٣٠): (٢/ ٢٠١).

(٢) سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٥): (٥/ ٥٠) ؛ المعجم الكبير للطبراني، رقم (٧٩١١): (٨/ ٢٣٣) ؛ ولأول الحديث وآخره شواهد أخرى.

يصلِّي عليهم طير السماء، وحيتان البحر، ودواب الأرض، والكرام الكاتبون، ورجلٌ آتاه الله علمًا فضنّ به عن عباده، وأخذ به صَفَدًا، واشترى به ثمنًا؛ فذلك يأتي يوم القيامة مُلجَمًا بلجامٍ من نار"(١).

ولابن القيِّم كلام مهم نفيس حول الجزئية الخاصة بالقول "إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض يصلُّون على معلِّم الناس الخير"؛ إذ قال: إنه "لمَّا كان تعليمه الناس الخير سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم، جازاه الله من جنس عمله، بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض، ما يكون سببًا لنجاته وسعادته وفَلَاحه.

وأيضًا؛ فإنَّ معلِّم الناس الخير لمَّا كان مُظهِرًا لدين الربِّ وأحكامه، ومعرِّفًا لهم بأسمائه وصفاته، جَعَلَ الله من صلاته وصلاة أهل سماواته وأرضه عليه، ما يكون تنويهًا به، وتشريفًا له، وإظهارًا للثناء عليه بين أهل السماوات والأرض"(٢).

ورد في حديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلَّم– قوله: "الدنيا ملعونة، معلونٌ ما فيها، إلَّا ذكر الله وما والاه وعالمٌ ومتعلِّمٌ"(٣).

- أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– بتبليغ العلم، فقد ورد في حديث عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما–، أنه عليه الصلاة والسلام– قال: "بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله: (٨٥/١).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٦٩).

(٣) سنن الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا، رقم (٢٣٢٢): (٤/ ٥٦١). وقال الترمذي: "هذا حديث حسن" ؛ سنن ابن ماجة، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (٤١١٢): (٣/ ١٣٧٧).

متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعدَه من النار"[١].

- استشهد ابن القيِّم بحديث أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلَّم- قال: "من خَرَج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع"[٢].

وبعيدًا عن الكلام الذي دار حول رواية الحديث، فقد رأى ابن القيِّم في شرحه له بأنه "إنما جُعِل طلبُ العلم من سبيل الله؛ لأنَّ به قِوَام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد.

ولهذا كان الجهاد نوعين:

جهادٌ باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير.

وجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادَين؛ لِعِظَم منفعته، وشدَّة مؤنته، وكثرة أعدائه.

والقول بأن النوع الثاني (الحجة والبيان) جهاد، مبني على استدلال من فهم نص قرآني في موضعين اثنين:

الأول: قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الفرقان: ٥١]، فهذا جهاد لهم بالقرآن.

والثاني: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٧٤): (٣/ ١٢٧٥) ؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم (٦٨٨٨): (٢/ ٢٠٢) ؛ مفتاح دار السعادة: (ص٢٠٠).

(٢) سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: فضل طلب العلم، رقم (٢٦٤٧): (٥/ ٢٩) ؛ والطبراني في (المعجم الصغير)، رقم (٣٨٠): (١/ ٢٣٤).

عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، ومعلوم أن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، وإنما كانوا معهم في الظاهر –نفاقًا–، وهذا يعني بأن جهاد النبي لهم المأمور به في هاتين الآيتين القرآنيتين يُراد بها جهاد الحجة والبيان.

كما ذهب إلى أن المراد بكون من خرج في طلب العلم يكون في سبيل الله، أنه في جهاد، مستشهدًا في هذا بما نُقِل عن معاذ –رضي الله عنه– قوله: "عليكم بطلب العلم؛ فإنَّ تعلُّمَه لله خشية، ومدارستَه عبادة، ومذاكرتَه تسبيح، والبحثَ عنه جهاد"(١).

- ورد في حديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة"(٢). وعلَّق ابن القيِّم على هذا الحديث، بأنه "قد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل، فكما سلك طريقًا يطلب فيه حياةَ قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقًا، يحصل له ذلك"(٣).
- أن النبي –صلى الله عليه وسلَّم– دعا لمن سمع كلامَه، ووعَاه، وبلَّغه بالنضرة، أي بالبهجة ونضارة الوجه وتحسينه؛ إذ ورد عن ابن مسعود –رضي الله عنه– أن النبيَّ –صلى الله عليه وسلَّم– قال: "نضَّر الله امرءًا سَمِع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها، فرُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه، ثلاثٌ لا يغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ائمة

(١) مفتاح دار السعادة: (١٩١– ١٩٢).

(٢) سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: فضل طلب العلم، رقم (٢٦٤٦): (٥/ ٢٨). وقال: "هذا حديث حسن"، وصحَّحه الألباني؛ سنن ابن ماجه، رقم (٨٤): (١/ ٢٨٤) ؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم (٨٢٩٩): (٢/ ٣٢٥).

(٣) مفتاح دار السعادة: (ص١٩٥).

المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتَهم تحيط من ورائهم"[١].

وحسب ابن القيِّم، فإنه لو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به بيانًا لشرفه العالي ومكانته السامية؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا لمن سمع كلامه، ووعاه، وحفظه، وبلَّغه، وهذه هي مراتب العلم: فأولها سماعه. وثانيها: الوعي بما تم سماعه من العلم وتعقُّله. وثالثها: تعاهده وحفظه. ورابعها: تبليغه وبثُّه في الأمة؛ حرصًا على تحصيل ثمرته ومقصوده، ومِنْ ثَمَّ "فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمَّنة لجمال الظاهر والباطن، فإنَّ النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجةُ والسرورُ والفرحةُ نضارةً على الوجه"[٢].

ونجد في القرآن الكريم جمعًا بين النضرة والسرور، فإنَّ سرور القلب يبدو للناظر من خلال نضارة الوجه، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١]، وقال سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطفِّفين: ٢٤].

ومما لا شك فيه أنه من الظهور بمكان فضيلة العلم والعلماء، وأنه مهما ذكر الناس من فضائل للعلم فإنه تقصر عن بيان فضله على ما هو عليه، وقد أفاد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار السعادة في بيان قيمة العلم ودلل على ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام السلف، فينبغي على كل عاقل ألا يغفل عن النهل من هذا المعين الصافي، والتزود من العلم النافع الذي فيه رفعة الدنيا ونعيم الآخرة.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٦٥٨): (٥/ ٣٤) ؛ سنن ابن ماجه، كتاب: الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: من بلَّغ علمًا، رقم (٢٣٦): (١/ ٨٦).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٩٦- ١٩٧).

المطلب الرابع

نعمة العلم بين المنح والمنع

أفرد الإمام ابن القيِّم –رحمه الله– كلامًا كثيرًا في كتابه هذا الذي ندرس مكانة العلم من خلاله، للحديث عن النعمة التي أنعم الله –سبحانه وتعالى– بها على خلقه بتعليمهم ما ينفعهم ويلبِّي رغباتهم، في مقابل منعه عنهم علم ما ليس من شأنهم، وفي كلا الأمرين الإلهيين نعمة محقَّقة ظاهرة، سواء أكان هذا الإنعام الإلهي العلمي بالإعطاء أم بالمنع، وجاء هذا الفصل المشار إليه تحت عنوان "الحكمة في إعطاء الإنسان علم ما يحتاجه ومنعه ما لا حاجة له به".

وحسب تعبير الإمام ابن القيِّم نفسه، فإنَّ الله قد منَّ على عباده بأن "أعطاهم من الأمور المتعلِّقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم؛ كعلم الطب والحساب، والزراعة والغِرَاس، ونحوها من ضروب الصنائع، واستنباط المياه، وعقد الأبنية، وصنعة السفن، واستخراج المعادن وتهيئتها لما يُرَاد منها، وتركيب الأدوية، وصنعة الأطعمة، ومعرفة ضروب الحيل في صيد الوحش والطَّير ودوابِّ الماء، والتصرُّف في وجوه التجارات، ومعرفة وجوه المكاسب، وغير ذلك ممَّا فيه قيام معاشهم"[(١)].

وقد تحدَّث الإمام ابن القيِّم عن الحفظ والنسيان باعتبارهما نعمتين عظيمتين أنعم الله بهما على عباده، مع ما يبدو فيهما أو بينهما من الاختلاف أو التضاد، مفضِّلًا بهما النوع الإنساني عن غيره من المخلوقات الحية الأخرى، مع ما يشتمل عليه هذا الأمر من الحِكَم والأسرار، وما يعود على الإنسان منهما من المصالح والمنافع؛ "فإنه لولا القوة الحافظة التي خُصَّ بها لدَخَل عليه الخَلَل في أموره كلها، ولم يعرف ما له وما عليه، ولا

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٨٠٠– ٨٠١).

ما أخذ ولا ما أعطى، ولا ما سمع ورأى، ولا ما قال ولا ما قيل له، ولا ذَكَر من أحسن إليه ولا من أساء إليه، ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه، ولا من ضرَّه فينأى عنه، ثم كان لا يهتدي الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارًا، ولا يعرف علمًا ولو دَرَسَه عمره، ولا ينتفع بتجربة، ولا يستطيع أن يعتبر شيئًا، على ما مضى، بل كان خَلِيْقًا أن ينسلخ من الإنسانية أصلًا... ومن أعجب النِّعَم عليه نعمةُ النِّسيان؛ فإنه لولا النسيان لما سَلَا شيئًا، ولا انقضت له حسرة، ولا تعزَّى عن مصيبة، ولا مات له حُزْن، ولا بَطِل له حِقْد، ولا استمتَع بشيءٍ من متاع الدُّنيا مع تذكُّر الآفات، ولا ردَّ غفلةً من عدوِّهِ ولا فترةً من حاسدهِ"(١)

واختتم ابنُ قيِّم الجوزيَّة حديثَه في هذا الجانب بدعوته إلى التأمُّل في هاتين النعمتين اللتين تبدوان متضادتين، بشكل قد يجعل البعض يحسب إحداهما نعمةً والأخرى نقمةً؛ قائلًا: "فتأمَّل نعمة الله عليه في الحفظ والنسيان، مع اختلافهما وتضادِّهما، وجَعَل له في كل واحدٍ منهما ضربًا من المصلحة"(٢).

كما أنَّ الله سبحانه وتعالى منَّ على عباده بأن **منع عنهم العلم بما ليس لهم شأن فيه**، ولا فائدة تعود عليهم منها، "ثم منعهم سبحانه علم ما سوى ذلك، مما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له، كعلم الغيب، وعلم ما كان وكل ما يكون، والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرَّات الرمال ومَساقط الأوراق، وعدد الكواكب ومقاديرها، وعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى، وما في لجج البحار وأقطار العالم وما يكنُّه الناس في صدورهم، وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، إلى

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٧٨٧- ٧٨٨).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص٧٨٨).

سائر ما حجب عنهم علمه، فمن تكلَّف معرفة ذلك فقد ظلم نفسَه، وبَخَسَ من التوفيق حظَّه ولم يحصل إلا على الجهل المركَّب والخيال الفاسد في أكثر أمره..."[١].

ومن ذلك:[٢]

- **منع عنهم علم الغيب:**

فقد جعل الله علم الغيب له وحده، لا ينازعه فيه أحد، فهو سبحانه الذي يعلم كل شيء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

إذا كنا نعلم علمًا يقيِّنيًّا من عقيدتنا، أن الله سبحانه وتعالى قد استأثر لنفسه بعلم الغيب، فلا أحد باستطاعته معرفة شيء من الغيبيات إلا إذا علَّمه الله إيَّاه وأطلعه عليه، وقد نصَّ الله في أكثر من موضع من القرآن الكريم على أنه سبحانه وتعالى ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ: ٣، الجن: ٢٦]، وبأنه عزَّ وجلَّ ((**عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**))، [الأنعام: ٧٣. ؛ التوبة: ٩٤. و١٠٥ ؛ الرعد: ٩.. ؛ المؤمنون: ٩٢ ؛ السجدة: ٦ ؛ الزمر: ٤٦ ؛ الحشر: ٢٢ ؛ الجمعة: ٨ ؛ التغابن: ١٨].

- **منع عنهم علم الساعة:**

وعلم الساعة من الغيبيات التي اختصَّ الله بها نفسه سبحانه، ووردت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَۖ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٨٠١).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص٨٠١) وما بعدها.

وقد جعل بعض المفسِّرين القدامى والمحدَثين هذه الآيةَ تفسيرًا للآية التي ورد فيها ذكر مفاتح الغيب[١]؛ بقوله سبحانه: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومما يدخل تحت منع الله عن عباده علم الساعة، أنه منع عنهم معرفة آجالهم، فلا يعرف العبدُ ميعاد موته ورحيله عن الدنيا، وفي هذا حكمة ظاهرة لا تخفى عن القلوب الباصرة؛ ذلك لأنَّ الإنسان إذا علم بموعد أجله، فهو إمَّا أن يكون أجلًا قريبًا وإمَّا أن يكون أجلًا بعيدًا، فإن كان قريبًا فإنه لن يهنأ بالعيش، وسيبقى متهيِّئًا للرحيل، وإن كان بعيدًا فإنه قد ينشغل بالحياة الدنيا، على أمل أن يعود في الوقت المناسب وينهمك في العمل للآخرة، والاتجاه نحو ربه تبارك وتعالى.

وقد أفرد ابنُ القيِّم فصلًا للحديث عن هذه النقطة؛ إذ قال: إن "من حكمته سبحانه ما منعهم من العلم كعلم الساعة، ومعرفة آجالهم، وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر.

فلو عرف الإنسانُ مقدار عُمُره؛ فإن كان قصير العُمُر لم يتهنَّأ بالعيش، وكيف يتهنَّأ به وهو يترقَّب الموت في ذلك الوقت؟! فلولا طول الأمل لخَرِبت الدنيا، وإنما عمارتها بالآمال.

وإن كان طويل العُمُر –وقد تحقَّق ذلك– فهو واثق بالبقاء، فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قَرُب الوقت أحدثتُ توبةً. وهذا مذهبٌ لا يرتضيه الله عزَّ وجلَّ من عباده، ولا يقبله منهم، ولا يصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمتُه وسبق في علمه"[٢].

---

(١) يُنظَر: جامع البيان للطبري: (٢٨٢/٩)، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: (٤/ ١٤٨)؛ أضواء البيان للشنقيطي: (١٩٦/١).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص٨٠٢-٨٠٣).

المبحث الثاني

عدُّ العلم طريقًا إلى التوحيد والإيمان

يُعدُّ العلم طريقًا موصلًا إلى التوحيد والإيمان، وبابًا مدخلًا إليهما، وهما أول ما يجب على المرء في شريعة الإسلام، ولا شكَّ في أنَّ أمرًا كهذا يُعدّ دليلًا بارزًا على المكانة العالية الرفيعة التي يحتلها العلم في الإسلام، وهذا ما سيتم توضيحه في هذا المبحث.

المطلب الأول

مركزية التوحيد في دعوة الأنبياء والرُّسُل

قبل البدء بالحديث عن كون العلم طريقًا للتوحيد والإيمان، يبدو من الأهمية بمكان أن تتمَّ الإشارة إلى ما نلحظه بوضوح من خلال القرآن الكريم، بخصوص أن قضية التوحيد والإيمان كانت في أولى أولويات دعوات الأنبياء والرسل -عليهم السلام-، فما من نبي أو رسول إلا وكان أول ما دعا قومه إليه هو أن يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وهذا ما يبدو واضحًا في الخطاب القرآني، سواء أكان ذلك على سبيل الإجمال أم على سبيل التفصيل(١).

فمن الجانب الإجمالي:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النَّحْل: ٣٦].

(١) يُنظَر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤/٨)، تيسير العزيز الحميد سليمان بن عبد الوهاب ص (٢١)، حاشية ثلاثة الأصول لابن قاسم ص (١٣٧)، مدارج السالكين لابن القيم (٤١١/٣).

ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[الأنبياء: ٢٥].

ومن الجانب التفصيلي:

يقول الله سبحانه وتعالى عن عدد من الأنبياء والمرسلين بأن كلًّا منهم دعا قومه الذي بُعِث إليه أو فيه إلى إفراد الله بالوحدانية؛ ومن ذلك ما يأتي:

ورد عن نوح –عليه السلام﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ ، [هود: ٢٥-٢٦]. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾[المؤمنون: ٢٣].

وورد عن هود –عليه السلام–: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾ [هود: ٥٠].

وورد عن صالح –عليه السلام–: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾[هود: ٦١].

وورد عن شعيب –عليه السلام–: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ غَيْرُهُ))، [الأعراف: ٨٥]،

وحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم –عليه السلام– والمؤمنين معه ما يفيد هذا الأمر نفسه، بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وحكى الله سبحانه وتعالى مخاطبته لموسى –عليه السلام– بقوله﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾، [طه: ١٤].

وورد عن عيسى –عليه السلام–: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

وأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا –صلى الله عليه وسلَّم– بأن يقول التوحيد بكلمات جامعة مانعة، تضمَّنتها سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].[1]

وبهذا العرض يتضح أن التوحيد يمثِّل الأساس الذي قامت عليه

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج (١٦٧/١)، بدائع الفوائد لابن القيم (٢٤٨/١)، معارج القبول لحافظ حكمي (١٤٣/١).

وانطلقت منه دعوات جميع الأنبياء والرُسُل –عليهم وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام–، فقد أوضح القرآن أنّ أساس دعوة الرسل هو التوحيد، وإفراد الله تعالى بما يختص به من الدعاء والنذر والذبح وسائر صنوف العبادات، بل اتفقت دعواته جميعًا على هذا، وعلى هذا استقر كلام العلماء سلفا وخلفًا(١).

ويُعد علم التوحيد من العلوم التي من الضرورة أن يلمَّ بها المرء المسلم، ويعتني بها، ويحرص على تحصيل أكبر قدر ممكن منها، بما في ذلك علم الأسماء والصفات، فإن معرفة ما لله سبحانه من أسماء حُسنَى وصفاتٍ عُلى، من شأنه أن يدفعه إلى مزيد من الإيمان القوي به، واستشعار عظمته، وهو ما يثمر عن زيادة في الخشوع والخضوع منه لربه، مع تحقيق التوحيد لله في جانب توحيد الألوهية أو العبودية، وكذلك جانب توحيد الربوبية.

وقد أبان ابنُ القيِّم هذه المسألة بشكل متسلس مترابط جميل، محاولًا التمثيل لكل ما يمكن أن يعود على العبد من معرفته هذا الاسم أو تلك الصفة من الأسماء الحُسنَى والصِّفات العُلَى، "فعلم العبد بتفرُّد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة= يثمر له عبوديَّة التوكُّل عليه باطنًا، ولوازم التوكُّل وتمراته ظاهرًا"(٢).

وما ذُكِرَ هنا ليس سوى مثال، أي من باب المثال لا الحصر، وإلا فقد ذكر إمامُنا ابن القيِّم –رحمه الله– كثيرًا مما يندرج تحت هذا الموضوع، مع ختم حديثه حول ذلك بقوله: "فرَجَعَت العبودية كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها؛ فخلقه سبحانه وأمره هو موجب

(١) ينظر: منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام (٣٤٦/٥)، شرح الطحاوية لابن أبي العز ص (٧٧).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٠٨٦).

أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها، لا أنه يتزيَّن مِن عباده بطاعتهِم، ولا تشينه معصيتُهم"[١].

المطلب الثاني

استشهاد أولي العلم على وحدانية الله

لعلَّ من أهم ما يؤكِّد أن العلم طريق التوحيد والإيمان، أنّ الله سبحانه وتعالى استشهد بشهادة أولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو التوحيد والوحدانية، وتوكيد أنه لا إله إلا هو سبحانه، مع جعل هذه الشهادة العلمائية مقرونةً بالشهادة الإلهية والشهادة الملائكية، كما هو واضح في الآية القرآنية الكريمة التي تدل على ذلك؛ إذ قال الله –سبحانه وتعالى﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وأن يستشهد الله تعالى بأولي العلم على أجلِّ مشهودٍ عليه، وهو توحيده، فإنَّ هذا يدل، حسب تفصيل الإمام ابن القيِّم، على فضل العلم وأهله، من وجوهٍ عدَّةٍ، أفاض –رحمه الله– في استعراضها والتعليق عليها، موصلًا إيَّاها إلى عشرة، على النحو الآتي:[٢]

الأول: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

الثاني: اقتران شهادتهم بشهادته سبحانه وتعالى.

الثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

الرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلَهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف، عن النبيِّ –صلى الله عليه وسلَّم–:

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٠٨٧)

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٣١–١٣٣).

«يحمل هذا العِلْمَ من كل خلف عدولُه، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطِلِين، وتأويلَ الجاهلين»[(١)].

الخامس: أنه وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به، وأنهم أهله وأصحابه، ليس بمستعارٍ لهم.

السادس: أنه –سبحانه– استشهد بنفسه، –وهو أجلُّ شاهد–، ثم بخيار خلقه –وهم ملائكته والعلماء من عباده–، ويكفي بهذا فضلًا وشرفًا.

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهودٍ به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا هو سبحانه. والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجةً على المنكرين، فهم بمنزلة أدلَّته وآياته وبراهينه الدالَّة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمِّن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته؛ وهذا يدل على شدَّة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم، وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه، إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقِّه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا

---

(١) سنن البيهقي الكبرى، كتاب الشهادات، باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول كفوًا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع أو أنه لا يبصر الفتيا، (٢٠٩/١٠) رقم (٢١٤٣٩). ينظر: مسند الشاميين، سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، (٣٤٤/١)، وصححه الألباني في تحقيقه على مشكاة المصابيح (٨٢/١) رقم (٢٤٧).

أدّوها فقد أدّوا الحق المشهود به؛ فثبت الحق المشهود به؛ فوجب على الخلق الإقرار به، وكان في ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم. وكل من ناله هدى بشهادتهم، وأقرَّ به الحق بسبب شهادتهم، فلهم مثل أجره. وهذا فضل عظيم، لا يدرك قدره إلا الله، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم، فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا.

وورد ما يفيد أنّ الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا ليُعرَف بأسمائه وصفاته وليُعبَد؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] ؛ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢][(١)]، مع الاستشهاد قبل ذلك باقتران الكتاب والحديد في الذكر؛ قال تعالى﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].[(٢)]، ومن شأن هذا أن يدل "على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر "[(٣)].

كما أن الله –سبحانه وتعالى– استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٩).
(٢) مفتاح دار السعادة: (ص١٩٢).
(٣) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٩).

وأخبر الله تعالى بأن أولي العلم يرون أن ما أُنزِل من ربهم حقًا، فجعل هذا ثناءً عليهم واستشهادًا بهم. قال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].

فإذا كان التوحيد رأس الأمر في دعوة الإسلام، فإن العلم طريقه ودليله، وكلما زاد المرء علما، ازداد إيمانا بالله وتوحيدا له ومعرفة به، كما سبق وكما سيأتي.

المطلب الثالث

اقتضاءُ زيادةِ العلم زيادةَ الإيمان

ورد في القرآن الكريم ما يدل على أنَّ زيادة العلم تعطي زيادةً في الإيمان به وخشيته؛ فقد أخبر الله -سبحانه وتعالى- بأن أولي العلم هم الذين يخشونه، بل إنه قصر الخشية عليهم وحصرها فيهم، مستخدمًا أداة (إنما) التي تفيد ذلك، في قوله -عزَّ وجلَّ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

وإذا كان سبحانه قد حصر الخشية في أولي العلم، فإنَّ هنالك نصًّا قرآنيًّا يفيد أنَّ من جزاء الخشية جنات الخلد؛ إذ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البيِّنة: ٧-٨][(١)]، فاتضح بهذا أن "الخشية لا تكون إلا بعد معرفته تعالى.. وجعل الخشية غايةً للهداية؛ لأنها ملاك الأمر، من خشي الله تعالى أتى منه كل خير"[(٢)].

وقد عزَّز الإمام ابن القيم هذا الاستدلال الذي أورده بمقولة مروية

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٧).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (٩٩/٩).

عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–، نقلها عنه بعض العلماء، قال فيها: "كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا"(١)، وله مقولة قريبة في معناها من هذه المقولة، ونصُّها يفيد أنه "ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية"(٢).

ويُلَاحَظ أن آية سورة فاطر السالف ذكرها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]؛ وردت في سياق الحديث عن العلوم الطبيعية الكونية، وهذا الأمر من شأنه الإفادة بأن العلم مفهوم عام واسع في المنظور الإسلامي، بحيث يشمل كل علم يعود على الناس بالنفع والفائدة، في دينهم ودنياهم.

إن من أهمية العلم وقيمته أنه يمكِّن صاحبه من أن يتعبَّد الله بوعي كبير، فكلما زاد علم المرء وفقهه؛ زادت درجة إتقانه أو إحسانه في تعبُّده، ولهذا ورد القول بأن فقيهًا واحدًا أشدّ على الشيطان من ألف عابد. وورد ما نصه: "لكل شيء دِعَامة، ودِعَامة الإسلام الفقهُ في الدِّين، والفقيه أشدُّ على الشيطان من ألف عابد".

وبعيدًا عن الحديث الدائر حول الرواية المنسوبة إلى النبيِّ –صلى الله عليه وسلَّم–، بخصوص أن فقيهًا عالِمًا واحدًا أشدّ على الشيطان من ألف عابد، "فإنَّ العالِم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه، ويهدم ما يبنيه، فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك، فلا شيء

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٣٨)، وروى الأثر عبد الله بن المبارك في الزهد والرقائق ص (١٥) رقم (٤٦)، والإمام أحمد في الزهد ص (١٣٠) رقم (٨٦٤).
ونسب الإمام الشوكانيُّ هذا الأثر إلى مسروق. يُنظر تفسيره "فتح القدير": (٤/ ٣٩٩).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٥٤٥).

أشدَّ عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة، ولا شيء أحبّ إليه من زواله من بين أظهرهم، ليتمكَّن من إفساد الدين وإغواء الأمة، وأما العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه في خاصة نفسه، وهيهات له ذلك"(١).

تعليل الله خلق الخلق بتعليم العباد أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فأصبح العلم بالرب وصفاته وعبادته من قِبَل عباده الغاية التي تُرجى من الخلق والأمر؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن فضل العلم، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جعله معيارًا للتقدُّم في العبادات والفضائل العملية، فجعل أقرأ الناس لكتاب الله، أي أكثرهم إجادةً له، حفظًا وعلمًا وتدبُّرًا، أولى بغيره في أن يؤم الناس في صلواتهم؛ إذ جاء في حديث أبي مسعود البدري –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "يؤم الناس أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواءً فأقدمهم سِلْمًا أو سِنًّا"(٢)، وفي هذا ما يوضِّح تقديم العلم على الإسلام والهجرة، وهو نوع تقديم للعلم على العمل، وهذا وارد في القرآن الكريم﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[محمد: ١٩].

ورد في حديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "خصلتان لا يجتمعان في منافق: حسنُ سَمْتٍ

(١) مفتاح دار السعادة: (ص١٧٩).

(٢) صحيح مسلم: (٦٧٣)..

وفقهٌ في الدِّين"[١].

وقد قال الإمام ابن القيِّم كلامًا يؤكِّد صحة معنى الحديث، وإن كان فيه أو حوله كلام؛ إذ قال: "وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حُسْنُ السَّمْتِ والفقهُ في الدِّينِ فهو مؤمن. وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقًّا، وإن كان إسنادُه فيه جهالة، فإنَّ حُسْنَ السَّمْتِ والفقهَ في الدِّين من أخص علامات الإيمان، ولن يجمعهما الله في منافق، فإنَّ النفاق ينافيهما وينافيانه"[٢].

(١) سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٤): (٥/ ٤٩) ؛ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، رقم (٧٧٦): (١/ ١٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤/١) رقم (٣٢٢٩).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص٢٠٧).

المبحث الثالث

التفكُّر في خلق الإنسان والكون

اشتمل كلام ابن القيِّم حول العلم كلامًا عن التفكُّر في خلق الإنسان وملكوت السماوات والأرض؛ باعتبار أنَّ من شأن مثل هذا الأمر أن يسهم إسهامًا فاعلًا في تقوية العلم والفكر وتنميتهما، وهو الأمر الذي من شأنه أن يؤدِّي إلى زيادة الإيمان بالله وتقويته، إذ إنك "وإذا تأمَّلت ما دعا الله سبحانه في كتابه عبادَه الى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله مِنْ عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبرِّه ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته"(١).

المطلب الأول

علاقة التفكُّر بالعِلْم

من الأهمية بمكان أن تتم الإشارة، وإن بشكل عابر سريع، إلى العلاقة بين التفكُّر والعلم، ولا سيَّما أن مثل هذا التساؤل واردٌ في ذهن القارئ، حول مناسبة التطرُّق إلى التبصُّر في خلق الإنسان والتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض، في سياق الحديث عن مكانة العلم وقيمته.

فيحسن القول، إزاء ذلك، بأن حدوث مثل هذا الأمر لم يكن إلا للعلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة بين الأمرين، أي بين العلم والتفكُّر؛ فكلما زاد علم المرء، زادت قدراته على التفكُّر، في مقابل أن زيادة التفكُّر تشكِّل إسهامًا في زيادة العلم وتقويته وخصوبته، وسيأتي ما يبيِّن أن النظر في الكون والطبيعة دليل علم ووسيلة زيادة الخشية، وفقًا وما ورد في القرآن الكريم.

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٥٣٨).

وهذا يقتضي البحث عن مدلول كلٍّ من العلم والتفكُّر، ثم عن الألفاظ (المصطلحات) والمعاني (المفاهيم) التي تكون لها علاقتها بهما، فالعلم مصدر يعني الفهم والمعرفة. وحسب الراغب الأصفهاني، فـ "العلم: إدراك الشيء على حقيقته، وذلك ضربان:

أحدهما: إدراك ذات الشي.

الثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء موجود هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه.. والعلم من وجه ضربان: نظري وعملي، فالنظري ما إذا علم فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم، والعملي ما لا يتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبادات. ومن وجه آخر ضربان: عقلي وسمعي[١].

وإذا كان لفظ (العلم) وما تفرَّع عنه قد ورد بكثرة في القرآن الكريم، فإنَّ التفكُّر والفكر ضمن ما عُدَّ من الألفاظ ذات العلاقة والصلة به، إلى جانب العقل والفهم والتدبُّر والتذكُّر والتبصُّر والنَّظَر، ونحوها مما يحمل معنى إيقاظ العقل وإشغال الذهن.

المطلب الثاني

التفكُّر في خلق الإنسان

أورد الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحض وتحث على التأمل والتفكُّر والتبصُّر والنظر في آيات الله على مستوى الإنسان، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق: ٥]، وقوله: ((﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

ثم نجد آياتٍ قرآنيةً تشير إلى مراحل نمو الإنسان، من نطفة، ثم عَلَقَة، ثم مضغة، عَرَضَتها بعضُها بشيء من التفصيل؛ كقوله تعالى:

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ص (٥٨٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾ [الحج: ٥].

ويلحظ القارئ للقرآن كثرة الإشارة إلى مثل هذه الآيات أو الدلائل، في صورة تعطي الإفادة بأهميتها في الدلالة على الخالق عزَّ وجلَّ، "فلم يكرِّر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرَّد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث"(١).

وقد أفاض ابن القيِّم الشرح في هذا الجانب، بشكل دقيق عميق، متناولًا التفكُّر في كلٍّ من: النطفة، وتركيب العظام، وخلق الرأي، والعينين، والأذن، والأنف، والفم، والشفتين والأسنان، والحنجرة والصوت، والشعر، واليدين، والأظافر، والرقبة، والأربطة والأعصاب، والقلب والدماغ، والحواس والعقل، ومدخل غذاء الإنسان ومستقرّة ومخرجه(٢).

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٥٣٩-٥٤٠).

(٢) يُنظَر: مفتاح دار السعادة: (ص٥٤٠-٥٦٠).

المطلب الثالث

التفكُّر في ملكوت السماوات والأرض

من يمعن النظر في القرآن الكريم، يجده مليئًا بالآيات التي تدعو الإنسان إلى أن يطلق العنان لفكره للتأمُّل في عظيم خلق الله سبحانه، من ملكوت السماوات والأرض، بما فيها من أسرار عظيمة وحِكَم دقيقة، تبدو كل آية منها على أنها من صنع خالق حكيم قوي قدير، هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان له آياته العظيمة في خلق الإنسان، بتلك التفاصيل التي يعجز من سواه على القيام بها، "فكيف صُنعُه في ملكوت السماوات، وعُلوّها، وسَعَتِها، واستدارتها، وعِظَم خَلْقِها، وحُسْن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها، وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها"؟!"[1].

وقد مدح اللهُ تعالى من يعمل عقله في التفكُّر بملكوت السماوات والأرض، في مقابل ذمّه من يعطّل قدراته العقلية ويحرم نفسه من النظر في آيات الله:

فمن الأول: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

ومن الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]..

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة وتنبيهات عديدة إلى ما حتوت السماوات والأرض من آيات؛ ومن ذلك: قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٥٦٠).

أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

وممَّا يؤكِّد أهمية النظر في ملكوت السماوات والأرض، أن الله تعالى "لم يُقسِمْ في كتابه بشيءٍ من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسم به من مخلوقاته لتضمُّنه الآيات والعجائب الدالَّة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدَّلالة كان إقسامُه به أكثر من غيره"(١).

أثنى الله على المتفكِّرين في خلق السماوات والأرض، وذمَّ المعرضين عن ذلك؛ إذ قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ورأى ابن القيِّم أن النَّظرَ في آيات الله وأمثاله نوعان:(٢)

الأول: نظرٌ إليها بالعين الباصرة، أي بالبصر الظاهر، من خلال النظر في السماء والنجوم والكواكب، وفق ما هو متاح وممكن.

الثاني: نظرٌ إليها بالبصيرة الباطنة، فيتفكَّر بعقله ويمعن نظره وينعمه.

(١) مفتاح دار السعادة: (ص٥٦٢).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص٥٦٧- ٥٦٨).

الخاتمة

أولًا: نتائج الدراسة:

من النتائج التي توصَّلتْ إليها الدِّراسة، وخرجتْ بها الآتي:

- أهمِّيَّة الحديث عن قيمة العلم في الدِّين الإسلامي، ولا سيَّما في عصرنا الذي أصبحت فيه لغة العلم هي المرتفعة، وأصبح العالَم في سباق علمي، مع تأخُّر المسلمين في هذا المجال.
- شمولية مفهوم العلم في المنظور الإسلامي، فكل علم ممدوح ومطلوب ويدخل ضمن ما مُدِح وأُشيد به، ما دام أنه يلبِّي حاجات الناس ويعود عليهم بالنفع والفائدة.
- القيمة العلمية العالية لكتاب (مفتاح دار السعادة)، ليس في هذا الموضوع فحسب، وإنما في مختلف حقول المعرفة الداخلة في إطار العلوم الإسلامية واللغة العربية، وفيه الكثير والكثير من الفوائد والفرائد.
- أنَّ العلم من الأساسيات الضرورية التي يحتاج إليها الإنسان المسلم خاصة، فعليه يتوقَّف القيام بكثير من الواجبات المهمة في حياته.
- أنَّ للعلم مكانةً رفيعةً وقيمةً كبيرةً في الإسلام، ولعل الأمر يبدو واضحًا من خلال النصوص القرآنية والنبوية التي تتطرَّق إليه، من جوانبه المختلفة؛ فهو سبب لرفعة الإنسان، ومعيار للتفاضل بين الناس، وبه تتحقَّق الكثير من الفضائل والفوائد.
- أنَّ نعمة الله على عباده في جانب العلم لا تقتصر على ما منحهم إيَّاه منه فحسب، وإنَّما تشتمل –أيضًا– على ما منعه عنهم ومنعهم عنه؛ وفقًا لما اقتضت حكمته، وهو الحكيم الخبير.
- أنَّ الجهل مذمومٌ في الإسلام، وكثيرًا ما يكون سببًا للتيه والخسران والهلاك، على العكس تمامًا من العلم.
- أنَّ العِلمَ طريقٌ موصلٌ إلى التوحيد والإيمان، وبابٌ مدخلٌ إليهما، فقد

أشهد اللهُ أولي العلم على وحدانيته، جامعًا الشهادة العلمائية إلى جانب الشهادة الإلهية والشهادة الملائكية، وزيادة العلم تقتضي زيادة الإيمان والخشية.

- أنَّ التبصُّر والتفكُّر والتأمُّل والنَّظَر داخلةٌ في باب العلم، فكلها تسهم في تنمية القدرات العقلية وإذكاء الروح العلمية، وما أكثر ما اشتمل عليه القرآن الكريم في الدعوة إلى ذلك والحث عليه، بل والأمر به، سواء أكان التبصُّر في الإنسان أم التفكُّر في ملكوت السماوات والأرض.

ثانيًا: التوصيات:

- يوصي الباحث المهتمين بالتراث الإسلامي وطلاب الدراسات العليا بتتبع قيمة العلم في كتب السلف فهي زاخرة بها، وما هذه الدراسة إلا أحد النماذج حول ذلك.
- يوصي الباحث الأقسام العلمية ف تخصص الدراسات الإسلامية وأعضاء هيئة التدريس والطلاب، بأهمية تتبع كافة القيم المبثوثة في كتب أعلام التراث الإسلامي لأنها زاخرة بها.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. **ابن أبي العز**، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، الطبعة: الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢. **ابن أبي حاتم**، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩هـ.

٣. **ابن الجوزي**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، **مناقب الإمام أحمد**، المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ.

٤. **ابن القيم**، أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد بنِ أبي بكر بْنِ أَيُّوب ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ (٦٩١ - ٧٥١)، **بَدَائِعُ الفوَائِدِ**، المحقق: علي بن محمّد العمران (إشراف: بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد)، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ.

٥. **ابن القيِّم**، محمد بن أبي بكر الدمشقي (ت٧٥١هـ)، **مفتاح دار السعاد ومنشور ولاية العلم والإرادة**، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قايد، دار عالَم الفوائد، جدَّة، د.ط، د.ت.

٦. **ابن القيم**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

٧. **ابن المبارك**، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، **الزهد والرقائق لابن المبارك يليه «مَا رَوَاهُ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ فِي نُسْخَتِهِ زَائِدًا عَلَى مَا رَوَاهُ الْمَرْوَزِيُّ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ»**، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٨. **ابن تيمية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، **مجموع الفتاوى**، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٩. **ابن تيمية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

١٠. **ابن جرير الطبري**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، **تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

١١. **ابن حبَّان**، محمد بن حبان البستي (ت٣٥٤هـ)، **صحيح ابن حبان**، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٢. **ابن حجر**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

١٣. **ابن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، **الزهد**، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

١٤. **ابن عبد البر**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

١٥. **ابن عبد البر**، يوسف بن عبد الله، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: الزهيري، أبي الأشبال، ط١، (المملكة العربية السعودية: د.ن، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

١٦. **ابن قاسم**، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النجدي (المتوفى: ١٣٩٢هـ)، **حاشية (الأصول الثلاثة لمحمد بن عبد الوهاب)**، الناشر: دار الزاحم، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٧. **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١٨. **ابن ماجه**، محمد بن يزيد القزويني (ت١٧٣هـ)، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

١٩. **ابن مفلح**، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، الناشر: عالم الكتب.

٢٠. **أبو السعود**، محمد بن محمد العمادي (ت٩٨٢هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩٤م.

٢١. **أبو حيان الأندلسي**، محمد بن يوسف (ت)، **البحر المحيط**، تحقيق: د.زكريا عبد المجيد النوقي و د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٢. **أبو داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، **سنن أبي داود**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٣. **أحمد بن حنبل الشيباني** (ت٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وفريقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٤. **الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

٢٥. **آل الشيخ**، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (المتوفى: ١٢٣٣هـ)، ، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد**، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢٦. **الألباني**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، الناشر: المكتب الإسلامي.

٢٧. **البخاري**، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري (الجامع الصحيح)**، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٨. **البيهقي**، أحمد بن الحسين بن علي (ت٤٥٨هـ)، **شُعَب الإيمان**، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٩. **البيهقي**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، **السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي**، مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الطبعة: الأولى . ١٣٤٤ هـ.

٣٠. **التبريزي**، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، **مشكاة المصابيح**، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

٣١. **الترمذي**، محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ)، **سنن الترمذي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، ١٩٧٨م.

٣٢. **الحاكم**، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٣٣. **الحكمي**، المؤلف : حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى : ١٣٧٧هـ)، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، المحقق : عمر بن محمود أبو عمر، الناشر : دار ابن القيم – الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

٣٤. **الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت٥٠٢هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

٣٥. **الزجاج**، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، **معاني القرآن وإعرابه**، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

٣٦. **السرخسي**، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، **المبسوط**، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٣٧. **الشنقيطي**، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

٣٨. **الشوكاني**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، **فتح القدير**، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

٣٩. **الصنعاني**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، **تفسير عبد الرزاق**، الناشر: دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩هـ.

٤٠. **الطبراني**، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت٣٦٠هـ)، **المعجم الصغير**، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، دار عمَّار، بيروت وعَمَّان، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤١. **الطبراني**، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل– العراق، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٤٢. **الطبراني**، سليمان بن أحمد، **مسند الشاميين**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٤٣. **الماوردي**، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، **تفسير الماوردي = النكت والعيون**، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

٤٤. **المتقي الهندي**، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت٩٧٥هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوت السقا، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٥. **مجمع البحوث**، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) – (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م).

٤٦. **مسلم**، مسلم بن الحجَّاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، **صحيح مسلم (الجامع الصحيح)**، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت.